نظرة جديدة

فى « أرواح شاردة »

بمناسبة طبعته الثانية

للأديب حسين محمود البشبيشى

ما ظنك بالروح الشاعر إذا تفتّح ليستوعب أسرار الوجود ، وتغلغل يتأمل ألوان الجمال ؟ وما ظنك بالفكر القادر إذا عقد النية على كشف منبهم الأمور ، والبحث وراء بوارق المعرفة والنور ؟ وما ظنك بالفن الساحر إذا تشوّف إلى الشوارد الفنية الباسمة ، وتتطلع إلى مباهج الحياة الفاتنة .

... ذلك فيض من « أرواح شاردة » ! !

وقع الكتاب فى يدى صدفة ، فتناولته بلهفة ... لست أدرى أكان مصدرها تجاوب الروح بينى وبين أرواحه الشاردة ، أم الرغبة فى الاطلاع على لون من الأدب جديد الطابع فريد المنزع

لست أدرى كل هذا ؛ ولكن الذى أعلمه هو أنى حسن الظن - عن حق - بصاحبه الشاعر ، قوى الإيمان بروحه الساحر وشفافية وجدانه ، وتألق لفظه ، وعذوبة جرسه التى يخيل إلى المرء أنه ينسجها من قلبه نسجاً ، أو يسكبها من روحه سكباً

... وقرأت الكتاب فوجدتُ روح الفنان غالبةً على روح الشاعر ، وروح الشاعر طاغية على روح الكاتب . فهو فى كثير من الأحايين يعرض لدراسة شاعرٍ فى استقراء الكاتب المحقق ؛ ثم هو بعد ذلك يحاول أن يدفع عن الشعراء كل تهمة جائرة مجرّداً لذلك قلمه ساكباً فيه عصارة قلبه ... ونظرة واحدة إلى دفاعه عن شارل بودلير تريك صدق ما أقول فقد جاء فى مقام تعليل انتهاسه فى الشهوة العارمة ، وتلويثه للجمال

ودنا من القطار حتى أخذ الجاكتة ، وأعطى الجندى العلبتين . وبعرس الجاكتة بعين جذلة راضية ، وقد لاحت على شفتيه ابتسامة ظفر ، ووضع الصندوق على المقعد وارتدى الجاكتة ، وزرها . فبدت فضفاضة ولكنه لم يعن بذلك وتاه عجباً وسروراً واسترد صندوقه . وأخذ يقطع الإفريز فخوراً طروباً . وارتسمت لعينيه صورة نبوية فى ملاءتها اللف فقال متمتماً : لو ترانى الآن ! نعم لن تتجافانى بعد اليوم ولن تلوى وجهها عنى احتقاراً . ولن يجد الفر ما يفخر به على . ولكنه ذكر أن الفر يرتدى بذلة كاملة لا جاكتة مفردة فكيف السبيل إلى البنطلون . وفكر ملياً . وألقى على رؤوس الأسرى المطلة من نوافذ القطار نظرة ذات معنى . ولعب الطمع بقلبه من جديد فاضطربت نفسه بعد أن أوشكت أن تستقر . ودلف إلى القطار ونادى بجرأة : «سجائر . سجائر . العلبة بمنطلون لمن ليس معه نقود . العلبة بمنطلون» وأعاد نداءه مثنى وثلاثاً ، وخشى أن يغيب عن الأفهام مقصده فمضى يومئ إلى الجاكتة التى يرتديها ويلوح بعلبة سجائر . وأحدثت إيماءته الأثر المرجو فلم يتردد جندى أن يهم بخلع جاكتته ولكنه سارع نحوه وأومأ إليه أن يتمهل ، ثم أشار إلى بنطلونه يعنى أن ذلك بغيته ؛ وهز الجندى منكبيه باستهانة وخلع البنطلون وتم التبادل . وقبضت يد جحشة على البنطلون بقوة يكاد أن يطير من الفرح ، وتقهقر إلى مكانه الأول وأخذ يرتدى البنطلون وانتهى فى أقل من دقيقة فصار جندياً إيطالياً كاملاً ... ترى هل ينقصه شىء ؟ ... المؤسف حقاً أن هؤلاء الأسرى لا يغطون رؤوسهم بالطرابيش ... ولكنهم يضعون أقدامهم فى أحذية ... ولا غنى عن حذاء ليتساوى بالفر الذى يكرب حياته . وحمل صندوقه وهرع إلى القطار وهو يصرخ « سجائر ... العلبة بحذاء ... العلبة بحذاء » . واستعان على التفاهم بالإشارة كما فعل فى المرة الأولى . ولكنه قبل أن يظفر بزبون جديد آذنت صفارة القطار بالسير . فتمخضت عن موجة نشاط شملت الحراس جميعاً . وكانت سحائب الظلام تغشى جوانب المحطة ، وطائر الليل يحلق فى الفضاء ، فتوقف جحشة وفى نفسه لوعة ، وفى عينيه نظرة حسرة وغيظ . ولما أخذ القطار يتحرك لمح حارس فى عربة أمامية فبدا على وجهه الغضب وصاح به بالإنجليزية ثم بالإيطالية « إصعد بسرعة . إصعد أيها الأسير » فلم يفهم جحشة ما يقول وأراد أن ينفس عن صدره فجعل يقلده فى حركاته مستهزئاً به مطمئناً إلى بعده عن متناول يده . فصاح به الحارس مرة أخرى والقطار يبتعد رويداً رويداً « إصعد ، إنى أحذرك ، اصعد » فزمّ جحشة شفتيه احتقاراً وولاه ظهره وهم بالمسير ؛ فكور الحارس قبضة يسراه مهدداً وصوب بندقيته نحو الشاب الغافل ... وأطلق النار . ودوى عزيف الرصاصة يصم الآذان وأعقبها صرخة ألم وفزع . وتصلب جسم جحشة فى مكانه فسقط الصندوق من يده ، وتناثرت علب السجائر والكبريت . ثم انقلب على وجهه جثة هامدة .

يحيى الشرقاوى

الأرضي « لقد كان بودلير فناناً صادقاً طموحاً محباً للجمال وعلى العكس مما يرى الكثيرون فإنه باندفاعه المحزن في تلويث الجمال الأرضي ، وردّه كل أنثى امرأة عاهرة، قد أفشى عاطفته المكرسة لعبادة الجمال المطلق » ... وهذا كلام بعثه قلبٌ شاعر يدفع عن قلبٍ شاعر !

ووجدت روحَ المؤلف حائرة بين مباهج الشعر ، ومفاتن النثر ، ولكن ميله الشعري جعله يعرض لدراسة الشعراء أكثر من دراسة الكتاب

أفلم يعرض لنا بول فيرلين وسايره أصدق مسايرة ، ويتابعه متابعة الشاعر يقدر عظمة الشاعر ؟

أو لم يقدم لنا بودلير في فتنة شعره ، ويقظة وجدانه ، وتوهج شهوته ؟ ثم أكثر من ذلك إن روح الشعر في نفس صاحبنا غلبت عليه فجعلته يترجم قبرة شلي ، وعودة الملاح لجون ماسفيلد ، وأغنية القطيع ، وبيت الراعي ، ثم يشرق علينا بنفحة شعرية هي قصيدته في باريس

لو أستطيع أن أقول إنه حتى فيما كتب عن ذكرياته في آخر الكتاب كان شاعراً في كثير من الأحايين

وليس بغريب أن يختار هؤلاء الشعراء موضوعاً لبحثه ، فبين نظرتهم الفنية النفسية إلى الحياة وبين نظرة صلات ووشائج يدركها الناقد الفطن !

ولا يسعنا إلا أن نقول إنه في اختياره لقصائد القبرة وعودة الملاح، وبيت الراعي ، كان منسجماً مع اتجاهات نفسه وأحاسيسه ، ولكني أعتقد أن شعوره نحو هذه القصائد يختلف قوة وضعفاً ؛ وتبعاً لذلك تتفاوت القصائد

ولا يسعنا إلا أن نرفع القبرة إلى مستوى قدرة شاعرنا نفسه التي لمسناها حية متألقة بسامة في « الجندول » ، وفي قصيدته الخالدة « موت شاعر » ، ولعل هذه القصيدة الأخيرة كانت أول عهدي بالملاح التائه ، ثم قصيدته في ميلاد الشاعر التي نشرتها مجلة أبولو عقب وفاة شوقي

ونعود فنذكر رنة مطلعها ، وحسن اختيار بحرها ، وعذوبة قافيتها وشاعرنا يجيد الاستهلال . أنظر إلى روعة المطلع :

يا أيها الروح يهفو حوله الفرح تحية أيهذا الصادح المرحُ !
عن أمّة الطير هذا اللحن ما سمحتْ
بمثله الأرض ، لا روض ولا صَدَحُ
أنت الذي من سماء الروح منهله حرٌ إلهيـــة لم تحوها قدحُ

يفيض قلبك ألحاناً يسلسلها فن طليق من الوجدان منسرح

ولكم أطربني ، وهاج خواطري ، وحلق بي في جو من الخيال الباسم الوضيء قدرته على صوغ هذه المعاني السامية إذ يقول :

إنا نفكر في ماضٍ بلا أثرٍ ومُقبلٍ من حياة كلها غيب !
ومستحيل نُرجّي برقَ دينته وكل ما نرتجيه منه مختلب
وكم لنا ضحكاتٌ غير صادقة ما لم يشب صفوها التبرم والوصب
وإن أشهى الأغاني في مسامعنا ما سال وهو حزين اللحن مكتئب!

وهنا وقفة يجب أن يقفها الثائرون على النغم الحزين في أغانينا ؛ فهذا شلي الشاعر العالمي ينطق بلسان الفلسفة التي لا وطن لها . إن اللحن الحزين هو أشهى ما تسمع الإنسانية الحساسة الشفافة التي ترقب الزهر الوليد بنفس العين التي تودع الزهر الذابل أما قصيدة عودة الملاح فلعله ترجمها بدافع تجانس الميول ، وتقارب الأحاسيس ؛ فقد كان شاعرنا ملاحاً تائهاً ! فهو كما يظهر يحب البحر ، أو في طبيعته الزخارة بالوجدانات شيء من طبيعة البحر ؛ وإلا فلم ترجم عودة الملاح ؟ الجواب ينطق به مطلعها :

يا فرحتي للبحر أرجعُ ثانياً متفرّداً بعبائه وسمـــائه
أقصى منايَ سفينة ممشوقة وبزوغ نجم أهتدي بضيائه

بعد أن بينت الدوافع إلى ترجمته لهؤلاء الشعراء ولتلك القصائد أدع الكاتب نفسه يعبر عن سبب ترجمته لقصيدة « بيت الراعي » فيقول : « لأنها ذات موضوع طريف حافل ، يتكلم فيه الشاعر بدقة ورقة وصراحة وعظمة عن القلب والروح والجسد وشقاء النفس الشاعرة بهذا العالم الجارح ومدينته الجافية القاسية »

وهذا يصدق قولي في أن الشاعر اختار ما جانس أحاسيسه ولابس وجدانه

ونتكلم عن ذكريات مرت بقلبه ، وعطرت بأريجها ألفاف روحه ، وتغلغلت في أحاسيسه ، فخلّدها ... !

وإنك لتلمح في ليلته الأولى وحشة الغريب ولهفة المشتاق ؛ وترى في ميدان إسدرا سحر الألحان وروح الفنان ، وتحس في يوم فرساي نشوة الطرب وروعة الجمال ، وتنسم من فتاة برن عبير الروح وعبق القلب ... ثم ترى في قصيدة باريس دمعة الفنان وثورة الوجدان !

تلك هي ذكريات صاحب الجندول التي خضع فيها — كما سأبين — الروح الشاعرية ، والنزعة الشرقية ، والثقافة الأوربية ، ثم في كثير من الأحايين لطريقة أستاذنا الزيات

فكيف كان ذلك ؟ !

أما خضوعه للشاعرية فأمر محتوم ، وما كان له أن يتخلص من قيودها الحبيبة الباسمة ، بل إنها لتظهر فى كثير من اللفتات الرائعة فى ألفاف ذكرياته . فهو مقيد بروح الشعر وخاصة عند الحديث عن الجمال والفن بل وكل ما يتصل بالجمال والفن ؛ فإن خياله ليصف الحسناء فيقول فى معنى شعرى ساحر : كأنها طفلة إلهية هبطت لأول مرة عالم الأرض ؛ ويطيب لروحه الشاعر أن يتبعها بسجع حلو رقيق فاتن ... ولعل شاعرنا قد تأثر قليلاً بطريقة أستاذنا الزيات فى الصناعة القوية العذبة

وهو شاعر تنساب حياته انسياب خاطره الدافق ، وتجرى جريان خياله المتألق فى سهولة ووضاءة وسلام ، ولكن الأقدار تأبى « إلا أن تضع فى طريقه حادثاً غريباً وشاغلاً عجيباً » ، وفى حديثه عن فتيات باريس « وفى عيونهن من أسرار الليل الذاهب ألق ، وفى شعورهن من خمر المساء الغابر عبق » ، وهو يحاول له أن يعبر عن حيرة وجدانه بسجعة رنانة تحمل من الشاعرية روح الحيوية، وتحمل من الفن حلاوة الجرس، فيخيل له أنه مطارد « يلاحقه خوف أو يتأثره حتف »

وحين يقول : « وبدأت إنشادها بصوت يتماوج مرحاً ، ويتفجر شباباً ، ويترسل صفاء وعذوبة وسحراً ، وانفعلت هى بغنائها ، فاستحالت طيفاً راقصاً نابضاً باهتزازات هذه الأنغام المنطلقة فى سكون الليل تودع السلام والحب والرحمة فى قلب العالم!»

تلك هى ناحية الشاعرية فى نثر الكاتب جلّينا عنها فى إيجاز ؛ أما ناحية تأثره بالأدب الغربى فظاهرة فى كثير من اللفتات ، فهو يجعل للغيوم أنابيب زئبقية ! وللأضواء العاكسة دهاليز من أشعة الشمس تمرق من خلال الغمام الأبيض، بل أنه ليغرق فى الروح الغربية ، حين يجعل الهواء يرفع معطف فتاته الحريرى الأبيض الهفهاف إلى ما فوق ذراعيها ، فكأنها ملك السحاب يضرب بجناحيه الناصعين فى الزرقة الصافية متقدماً رعيلاً من الغمام الأبيض !

بقيت ناحية حبه للشرق والوطن ، فهو يهتاج عند ما يرى جثة الرسول مرقص فيقف خطيباً فى صحبه ويقول : « هذا الرسول الذى ضن البنادقة على مصر بجثته » ثم هو لا يسأم من ذكر مصر ولو عارض فتاة القلب وقطع عليها حديثها عند ما قالت :

وهناك بلاد غير بعيدة عن روما وأثينا . . . وعنها أخذ العالم أرفع الفنون ... فيهتف : بل لا يزال يأخذ عنها !

وكم هزنى منه هذه اللفتة الحية النابضة بالوطنية عند ما قرن الصحراء والبحيرات الأفريقية والنيل المقدس ببحيرات سويسرا وإيطاليا ومساقط الماء فى جبال إنسبرول ...

ثم هو يهتاج لرؤيته الشباب الأوربى يتألق قوة وهو يسعى للقتال، وقد وقفت الفتيات ينثرن الابتسامات على جباه الشباب البسل . فيتمنى لو يقدر الله له أن يرى مثل هذا المنظر فى مصر وطنه الحبيب

ولعل أطرف ما قابلنى من غيرته الوطنية دفاعه العجيب الفلسفى عن الفن المصرى وخلوه من الفن العارى ! ! فيقول معللاً ذلك بأن الحياة فى مصر سهلة ، والسماء صافية ، وكل شىء يفصح فى غير إبهام . . . وأن هذا الصفاء والإفصاح بعث فى النفس الرغبة فى التستر . . . وهكذا يخلق شاعرنا من موضع النقص فى فننا موضعاً للتأمل الفلسفى ... فتأمل !

أما قصيدة باريس الراقصة المغانى الرنانة الجرس . فحسب مطلعها روعة

سألونى عن بيانى وقصيدى أسفا باريس قد مات نشيدى !

ولكن كيف يموت النشيد الذى يقول :

صرع النور به وانحسرت جبهة الشمس عن النور الشهيد

بل كيف يموت النشيد الذى يقول :

وابعثيها ثورة أخرى فما يعرف الأحرار معنى للجمود

وبعد هذا هو الروح الشاعر والفكر القادر والفن الباهر ففيض من أرواح شاردة .

حسين محمود الشنيتى

إحجز نسختك من الآن فى كتاب :

مراجع فى أصول اللغة والأدب

تأليف الأستاذ العوضى الوكيل

وهو يشتمل على مقرر مادة المراجع فى امتحان الترقية إلى التعليم الثانوى (لغة عربية) هذا العام

الاشتراك قبل الطبع ١٥ قرشاً

عدد النسخ المعروضة للاشتراك الآن ١٠٠

يقفل باب الاشتراك فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٢

ترسل الاشتراكات إلى المؤلف

بمدرسة الأمير فاروق الابتدائية — مكتب بريد حدائق شبرا — مصر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)